حنين العرب الى بني امية

لبندلي جوزي
الاستاذ في جامعة باكو بروسيا

وانهم معدن الملوك فلا تصلح الاّ عليهم العرب

لم تكد الخلافة تنتقل من بني امية الى بني العباس حتى اندفع هؤلاء ومن مالأهم ووالاهم او من اشتروه باموالهم واصطنعوه بعطاياهم من المؤرخين والشعراء والفقهاء المحدثين وناقلة الاخبار او من اضطروه الى ذلك بطرق الارهاب والتنكيل من الوزراء والكتبة وسائر طبقة الموظفين في الطعن على الاسرة المغلوبة وتصوير اعمالها وحكمهم في اقبح صورة فلم تبق رذيلة الاّ نسبوها اليهم او مثلبة الاّ الحقوها بهم[1] او القاب قبيحة الاّ نبزوهم بها فصار معاوية في نظرهم « عدو الله وغلاماً مترفاً جبّاراً عنيداً لا يراقب الله في قتل الاخيار واسع الدنيا ضيق الآخرة قريب الثرى بعيد المرعى يجعل الظلمات نوراً والنور ظلمات »[2] ويزيد ابنهُ شر الناس اجمعين فاسقاً سكّيراً منهتكاً جائراً « كان قرعون اعدل منهُ في رعيته وانصف منهُ لخاصته وعامته »[3] والوليد بن عبد الملك « جباراً عنيداً ظلوماً غشوماً » وهشام « احول خشناً غليظاً جباناً بخيلاً » وسليمان « .... اكولاً شرهاً يأكل كل يوم نحو مئة رطل »[4] والوليد بن يزيد « صاحب شراب ولهو وطرب ومتّاعاً للغناء منهتكاً خليعاً ماجناً » وهلمّ جرًّا وياليتهم اكتفوا بذلك لكنهم حاولوا ان يكفروهم ويخرجوهم عن دين السنة والجماعة ليقضوا عليهم في نظر الشعب البسيط فاخذوا يؤوّلون الآيات القرآنية حسبما شاءت اهواؤهم واغراضهم السياسية فقالوا ان الله لعنهم في كتابه بقوله « والشجرة الملعونة في القرآن ونخوّفهم فما يزيدهم الاّ طغياناً كبيراً (١٧ : ٦٢) وانهُ تعالى عنى بقوله « ليلة القدر خير من الف شهر » مدة ملك بني امية ووضعوا فيهم الاحاديث ولم يستحوا ان ينسبوها الى النبي والنبي بريء منها فقالوا ان محمداً قال « يطلع من هذا الفجّ رجل من امتي يحشر على غير ملتي » واراد بالرجل معاوية وانهُ قال « اذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه » واوردوا الحديث « المرفوع المشهور » « ان معاوية في تابوت من نار في اسفل درك منها ينادي يا حنان يا منان الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين »

---

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ١٠ ص ١٣ و ٣٠٠ (من الطبعة المصرية)
(٢) المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٥٦ (من الطبعة المصرية)
(٣) « « « ٢ : ٦٨
(٤) كتاب النيروز والحدائق في اخبار الحقائق ج ٣ ص ٣٤ (ليون ١٨٦٩)

الى غير ذلك من الاحاديث الملفقة والتهم الكاذبة التي تجدها مذكورة في رسالة[1] المأمون او المعتضد بالله التي امر بانشائها وقراءتها على المنابر يوم رأى الناس في عاصمته وبالقرب من قصره يقضون الليالي في استماع اخبار بني امية والتحدث بمآثرهم وعزهم الغابر ويوم شاهد بنفسه حنينهم اليهم وانتظارهم خروج «السفياني» كما سترى بعيد ذلك. ثم هم لم يقفوا عند ذلك بل عمدوا الى تزوير الحقائق التاريخية المعروفة وصاروا ينسبون لانفسهم مآثر اعدائهم وينتحلون ما قيل فيهم من طيب الشعر والمديح فبدلوا اسم عبد الملك باسم قبة الصخرة في القدس باسم المأمون لكنهُ عَزُبَ عن بالهم ان يبدلوا سنة بناء القبة اي سنة ٧٢ للهجرة بغيرها من سني خلافة المأمون فانفضح عملهم وظهر تلاعبهم حتى بالتاريخ ولما خيل اليهم انهم لم يتركوا حسنة لبني امية الا واتوا عليها اخذوا يضطهدون من والاهم واساعدهم او انتسب اليهم فامر المهدي سنة ١٦٠ ثم برد آل زياد الى نسبهم فردوا[2] وامر المستعين سنة ٢٥٠ فاسقطت مرتبة من كانت له مرتبة في دار العامة من بني امية كابي الشوارب والعثمانين[3] الى غير ذلك مما يطول شرحه. على ان كل ذلك لم يكن ليقوى على محو آثار بني امية والحط من قدرهم وتنفير الامة العربية منهم فقد بقيت في اكثر البلاد التي فتحوها آثار خالدة واخبار مبعثرة تصوّر سياسة بني امية وشخصياتهم على خلاف ما حاول ان يصوّرهم اعداؤهم وبعض مؤرخي عصر بني العباس او من اعتمد عليهم من مؤرخي العرب. وهذه الآثار وتلك الاخبار كانت ولا تزال تذكّر العرب بهذا الدور المجيد من ادوار تاريخهم وتخلق فيهم حنيناً دائماً الى اصحاب هذا الدور. وانهُ يسرنا ان نرى ان بعض مؤرخي العرب ممن اشتغل بتاريخ العرب قد انتبه اخيراً الى ما ادخله اعداء بني امية على تاريخهم من التزوير فاخذ يعمل على كشف الحقيقة واعطاء كل ذي حق حقه. واول من اقدم على هذا العمل الطيب هو الاستاذ الشهير J. Wellhausen[4] ثم تبعه الامير Caetani[5] واستاذ كلية بيروت اليسوعيين الاب H. Lammens[6] وعضو اكاديمية بطرسبرج المتوفى حديثاً الاستاذ بارتولد وقليل غيرهم. على ان البحث في تاريخ بني امية وعصرهم لا يزال في اوله واذن لا يزال واسعاً لمن يريد ان يطرقهُ وأملنا ان يعنى به مؤرخونا حتى لا نكون حتى في تفهم تاريخ امتنا والتنقيب عنهُ عالة على غيرنا من الاماجم كما نحن عالة عليهم في جميع متوجاتنا العقلية وهذا ما حملني على وضع هذه المقالة التي اتوخى منها القاء بعض النور على ناحية صغيرة من نواحي

(١) الطبري ١١ : ٣٥٤ — ٣٦٠ (٢) الطبري ٩ : ٣٣٤ (٣) ابن الاثير : التاريخ الكامل ٧ : ٤٦ (من الطبعة المصرية). (٤) طالع كتابه في الالمانية «الدولة العربية وسقوطها» وقد ترجم الى الانكليزية (٥) طالع على الاخص تأليفه في الايطالية : «تاريخ الاسلام» (٦) طالع تأليفه في الفرنسية عن «معاوية» «ويزيد» وغيرهما

هذا الدور التاريخي فان وُفّقت فيه والاّ فقد بذلت جهدي

لو تتبعنا اخبار بني امية باسهاب لا يشوبه شيء من الغرض او التعصب السياسي من يوم انقطع حبل دولتهم وانتقل الحكم الى بني العباس الى ان تلاشت هذه الدولة فعلاً واسماً على يد هولاكو خان المغولي سنة ١٢٥٨ م لامكننا أن نستخرج منها حقيقتين لا غبار عليهما احداهما ان العرب على الاطلاق كانوا دائماً يحنون الى بني امية ويودون لو يعود الحكم اليهم وانهم كانوا يفضلونهم وسياستهم على بني العباس وسياستهم بل أن بعض الخلفاء العباسيين كانوا يقدرون اكثر خلفاء بني امية حق قدرهم ويتمثلون بهم في امورهم وسياستهم ويتقربون ممن بقي منهم او من اتباعهم وموالهم ولو تظاهروا احياناً بضدّ ذلك. ولنا على كل ذلك ادلة كثيرة لا يتسع المكان لذكرها كلها فلنقتصر اذن على بعضها

من اكبر الادلة على تعلق الامة العربية ببني امية وحنينهم اليهم بعد سقوط دولتهم محاولة بعض امراء الجيش الاموي وشيوخ اكثر القبائل العربية ولا سيما القيسية منها انتزاع الحكم من ايدي المتغصبين الذين استحوذوا في اخذه بالاعاجم وردّه الى بني امية . وقد ظلت هذه المحاولات تتجدّد وتتعدّد الى اوائل العصر الحادي عشر ولقد كانت تنجح هذه المحاولات لو لم يكن امر الذين كانوا يقومون بها «مشتتاً» ولو كان عليهم رأس يجمعهم (كما قال الطبري وأصاب)[1]

ان اول من انتقض على بني العباس وبيّض اي رفع الاعلام البيض اعلام الامويين هو حبيب بن مرة المرّي ومن كان معهُ من اهل الشام. قال الطبري «وكان عبد الله بن علي (عم المنصور وقائد جيوش العباسيين) مشتغلاً بحرب حبيب بن مرة المرّي بأرض البلقاء او البثنة وحوران وكان من قواد مروان وفرسانه فبايعهُ قيس وغيرهم ممن يليهم من اهل تلك الكور البثنية وحوران»[2] وبينا عبد الله كان يقاتل حبيب بن مرة او قبل ذلك على رواية اخرى خلع ابو الورد مجزاة بن الكوثر بن زُفر بن الحارث الكلابي «من اصحاب مروان وقواده وفرسانه» ودعا اهل قنسرين الى خلع ابي العباس «فبيضوا بأجمعهم» وكان سبب تبييضهم على ما رواه الطبري ان قائداً من قواد عبد الله بن علي عبث بولد مسلمة بن عبد الملك ونسائهم فشكا بعضهم ذلك الى ابي الورد فخرج من مزرعة له يقال لها زراعة بني زفر ... في عدة من اهل بيته حتى هجم على ذلك القائد فقاتله حتى قتله ومن معه»[3] وفي ذلك من الوفاء لبني امية والذود عن شرفهم ما لا يخفى على احد . ثم خلع اهل الشام وحمص وغيرهم فاضطر عبد الملك ان يصالح حبيب بن مرة ويؤمنه ومن معه ثم صالح اهل قنسرين

(١) الطبري ٩ : ١٣٩ (٢) الطبري ٩ : ١٣٩ (٣) الطبري ٩ : ١٣٧

والشام وآمنهم ولم يأخذهم بما كان منهم » خوفاً ولا شك من استفحال الامر

وفي هذه السنة اي سنة ١٣٢ هـ (٧٤٩—٧٥٠م) بيّض اهل الجزيرة ونقضوا حين بلغهم خروج ابي الورد وانتقاض اهل قنسرين ولم انتقضوا في آن واحد مع من انتقض من اهل الشام وقنسرين وغيرهم لاخرجوا جيوش بني العباس وربما قضوا على دولتهم الحديثة في البلاد الشرقية على الاقل لا سيما وان بعض قواد بني امية كابن هبيرة في واسط واسحاق بن مسلم العقيلي بسميساط وغيرهم في غيرها كانوا لا يزالون يقاتلون باسم بني امية وكان يخشى بأسهم فقد ذكروا ان اسحاق بن مسلم المذكور اقام بسميساط سبعة اشهر وابو جعفر محاصره وكان يقول « في عنقي يمنه فانا لا ادعها حتى اعلم ان صاحبها قد مات او قتل فارسل اليه ابو جعفر ان مروان قد قتل فقال حتى اتيقن ثم طلب الصلح وقال قد علمت ان مروان قد قتل فآمنهُ ابو جعفر وصار معهُ وكان عظيم المنزلة عنده »[1] فلما أيس ابو جعفر جانب العقيلي وجنوده لم يبق امامه وقتئذ الاّ ابن هبيرة فوجه اليه خيله ورجله وبعد حصار طويل قبض عليه وقتله ثم اخذ يقبض ويقتل من بقي من شيعة بني امية حتى بلغ عدد القتلى على ما ذكروا ستمائة الف في اقل من سنة . على ان ذلك لم يجتث من قلوب العرب وعلى الاخص قلوب سكان سوريا والجزيرة وفلسطين حب بني امية والتغني بأخبارهم والاشادة بذكرهم ولم تقعد بهم عن الخروج على « الاسرة المباركة » كلما كانت تسنح لهم فرصة

ففي سنة ٢٠٢ (٨١٧—٨١٨) بيض اخو ابي السرايا في الكوفة واجتمعت اليه جماعة[2] وفي سنة ٢٠٩ (٨٢٤—٨٢٥) خرج لنصر بن شبث وجماعته وكانوا جند بني امية[3] فأرسل اليه المأمون جعفر بن محمد من بني عامر يدعوه الى الطاعة « فأذعن وشرط شروطاً منها ان لا يطأ للمأمون بساطاً » فلم يجب الى ذلك وأصر المأمون الاّ ان يطأ بساطه اسوة بغيره ممن خرج عليه قبله فلما عاد اليه جعفر بن محمد بالخبر « صاح بالخيل صيحة فجالت ثم قال ويلي عليه (اي على المأمون) هو لم يقو على اربعمائة ضفدع تحت جناحه يعني الزط (فهل) يقوى على حلبة العرب » ؟[4] فكتب اليه المأمون كتاباً يذكره ويتهدده ان هو لم يخلد الى الطاعة ومما جاء في هذا الكتاب ويحسن هنا ذكره قوله « ولا ظُنّ بمن سبي من انصار الدولة كواهل رعاع اصحابك ومن تأشب[5] اليك من ادناني البدان وأقاصيها وطغامها واوباشها ومن انضوى الى حوزتك من خرّاب الناس ومن لفظته بلده ونفته عشيرته لسوء موضعه فيهم »[6] مما يستدل منهُ على ان عدد من لبى دعوة نصر بن شبث من العرب كان كبيراً وانهم اجتمعوا

(١) الطبري ٩ : ١٤٠ (٢) الطبري ١٠ : ٢٤٥ (٣) الطبري ١٠ : ٢٦٧
(٤) الطبري ١٠ : ٢٦٧ (٥) اجتمعوا عليهم (٦) الطبري ١٠ : ٢٦٨

اليه من اداني البلدان وأقاصيها» ولولا ذلك لما استطاع ان يقف في وجه جنود الخليفة «خمس سنين» كما روى الطبري ولما اضطر الخليفة ان يراسله ويتهدده ثم يتملقه ويستعطفه. والذي يظهر لي من حديث الطبري ان خروج نصر على الخليفة ووقوفه في وجه جيوشه خمس سنين كان داعياً لخروج غيره من عرب سوريا . فقد روى الطبري ان عبدالله بن طاهر ابن الحسين رجع من مصر سنة ٢١٢ه (٨٢٧—٨٢٨) ومعه المتغلبون على الشام كابن السرج وابن ابي الجمل وابن ابي الصقر»[1] لكنهُ لم يبين متى وكيف تغلب هؤلاء على الشام[2] ثم لم يمض خمس عشرة سنة على اخماد حركة صبر بن شيث حتى خرج في فلسطين ابو حرب اليماني «مدعياً انهُ اموي»...فاستجاب له قوم من حراثي اهل تلك الناحية واهل القرى»[3] اعتقاداً منهم بأنهُ «السفياني» المنتظر ولما كثرت غاشيته وتباعه من هذه الطبقة من الناس دعا اهل البيوتات من اهل تلك الناحية فاستجاب له منهم جماعة من رؤساء اليمانية ورجلان آخران من اهل «دمشق» فصار حوله على قول بعضهم زهاء «مئة الف» او خمسين الف على قول غيرهم[4] وفي كلا القولين مبالغة ظاهرة . ولولا ذلك ولولا ان اتباع ابي الحرب كان اكثرهم من الحراثين واهل القرى مما يستدل منهُ على ان حركته كان لها صبغة اشتراكية لما قويت جنود المعتصم على قتلها بهذه السرعة . كانت حركة ابي حرب اليماني على ما اعلم آخر حركة اريد بها القضاء على حكم بني العباس في سوريا عهد الدولة الاموية ومنشأ عزهم ومادة قوتهم اذ لم يذكر المؤرخون بعدها حركة من نوعها[5] وليس في ذلك ما يدعو الى العجب لان دولة بني العباس فقدت بعد وفاة المعتصم حربتها واصبحت العوبة في ايدي امراء الجيش من الاتراك ولان اكثر البلاد العربية انفصلت عنها فعلاً ولم تعد تفكر الا في مصلحتها الخاصة واستقلالها عن مركز الخلافة على ان ذلك لم يكن ليُنسي العرب اعظم دور من ادوار تاريخهم واقرب دولة الى قلوبهم فظلوا يذكرون في ايام محنهم بني امية بخير ما تذكر به الامم العظيمة الغابرة وينتظرون مجيء «السفياني» كما لا يزال اليهود ينتظرون مسيحهم والمسيحيون مجيء المسيح الثاني واصحاب زرداشت مخلصهم او بالاحرى مخلص العالم Saoshyant وقد تحول هذا الانتظار الى عقيدة دينية[6] وانتشر حتى بين

(١) الطبري ١٠: ٢٧٨ (٢) لا نعلم هذا كانت هؤلاء المتغلبين يد في ثورة اهل الشام في ايام الرشيد (الطبري ١٠: ٣١١) (٣) الطبري ١١: ٥ (٤) الطبري ١١: ٥ (٥) لخروج اسحاق بن اسماعيل مولى بني أمية في تنيس وليث بن نصر بن سيار في سمرقند سنة ١٩٠ غاية غير التي كانت لمن سبقهم ممن ذكرنا (٦) سنفرد «للسفياني» واخباره مقالة خصوصية ننشرها على صفحات المقتطف (ان شاء الله) ولهذا لا نرى حاجة الى الافاضة في ذكره هنا على انه لا بد من التنبيه الى ان لا صحة البتة لقول مصعب بن عبدالله بن يزيد بن معاوية هو الذي وضع خبر السفياني وكبره واراد ان يكون للناس فيه طمع حين غلب مروان بن الحكم على الملك وتزوج امه فان السفياني قد رواه غير واحد وتابعت فيه رواية الخاصة والعامة وذكره كثيرون من اهل البيت

الاعاجم[1] وهو لا يزال شائعاً حتى اليوم في شنشان (في بلاد الهند) وبعض اطراف اسيا الوسطى عند الاسماعيلية. وقد تبين لي وانا اضابع مؤرخي العرب وشعرائهم ان حنين العرب الى بني امية وانتظارهم ظهور احدهم كانا يشتدان ويقويان كلما كانت الامة تشعر بضعف الدولة العباسية وتراجعها امام اعدائها في الخارج والداخل وكلما كان خلفاء بني العباس يمسون شعورها القومي بتقديم الاعاجم عليها واعتمادهم عليهم في ادارة الخلافة يؤيد ذلك انهُ لما ساءت احوال الدولة واخذ حبلها يتثر على اثر خروج بابك واصحابه المعروفين بالخرّميين واقتحام الروم للثغور وثورة افريقية الى غير ذلك اخذ الناس يتحسرون على ذهاب ملك بني امية وما كان لهم من السلطة وانبطش واخذوا يقابلون سياستهم على سياسة بني العباس فاغاظ ذلك المأمون فامر منادياً ينادي « برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير »[2] على ان ذلك لم يمنع المحدّثين والقصّاص من جمع اخبار بني امية[3] وطلبها في طول البلاد وعرضها حتى اصبح طلبها كما يظهر مهنة كطلب الحديث وصار له رواة متخصصون كما كان رواة لغتر او لابطال الاياذة عند اليونان القدماء. ولم يمنع ذلك الناس من التعود على طرقات وفي مساجد بغداد ودمشق وغيرها لاستماع هذه الاحاديث والتأسي بها. لنستدل على ذلك من الكتاب الذي امر المعتضد بالله بوضعه سنة ٢٨٤هـ (٨٩٧—٨٩٨م) ليقرأ على الناس. قال ابو جعفر الطبري «وفي هذه السنة عزم المعتضد بالله على لعن معاوية بن ابي سفيان على المنابر وامر بانشاء كتاب بذلك يقرأ على الناس فخوّفه عبيد الله بن سليمان بن وهب اضطراب العامة وانهُ لا يأمن ان تكون فتنة ...» وقال ايضاً « ان اول شيء بدأ به المعتضد حين اراد ذلك الامر بالتقدم الى العامة بلزوم اعمالهم وترك الاجتماع ... ومنع القصّاص من القعود على الطرقات ... وفي الجامعين ... وفي جمادى الاولى نودي في المسجد الجامع بنهي الناس عن الاجتماع على قاصّ او غيره ومنع القصّاص واهل الحلق من القعود

(يتلوه البقية) الاستاذ ب. جوزي

---

(١) ذكر المقدسي (ص ٣٨٤ من احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ليدن ١٩٠٦) ان سكان اقليم الجبال (في العراق العجمي) ... عوان (غلاة) حنابلة يفرطون في حب معاوية وقال ايضاً (ص ٣٩٩) « ان في اهل اصفهان بغضة وشكر في معاوية وان معاوية كان مرسلا »

(٢) كتاب العيون والحدائق في اخبار الحقائق ج ٣ ص ٣٢٠

(٣) لا نزال هل حفظت هذه الاخبار الى هذا اليوم ام ليت بها ايدي اصحاب الغرض على اننا نعلم ان كثيرين عنوا بها ودافعوا عن بني امية غير دفاع منهم الجاحظ صاحب كتاب (العثمانية) وكتاب (امامة المروانية) وكتاب (امير المؤمنين معاوية بن ابي سفيان) وقد اتعمر له فيه من علي وابنه امامة بني امية ثم وضع كتاباً آخر اسماه (مسائل العثمانية) وكتاب (امامة ولد العباس) عند بني العباس انظر (مروج الذهب للمسعودي) ٣ : ١٤٣